٢٢

بلاد الروم -آسيا الصغرى - العلايا - أضاليا

إلى بلاد الروم ؛ أى: آسيا الصغرى

لم يَطُلْ مقام ابن بطوطة فى بلاد الشام هذه المرة ، وإنما هو مَرَّ ببعض بلادها الرئيسية مسرعاً ؛ لأن وجهته - هذه المرة - كانت بلاد الروم ، وهى آسيا الصغرى ، وهو لا يحدثنا عن الدافع له إلى زيارة هذه البلاد ؛ لأنه - على العادة - لا يذكر عِلَّةً لانتقاله من بلد إلى بلد ، ومن مثل هذا الرجل لا تطلب تعليلات ؛ فهو رحَّالة ، وزيارة البلاد ولقاء العباد والتعرف عليهم هو مطلبه وغايته .

وهو يحدثنا بأنه كان له فى الرحلة - هذه المرة - رفيق هو الحاج عبد الله ابن أبى بكر بن الفرحان التوزرى « ولم يزل فى صحبتى سنين إلى أن خرجنا من بلاد الهند إلى أن توفى بسندابور » وسنذكر ذلك ، والتوزرى هذا منسوب إلى «توزر» من بلاد إقليم قسطيلية جنوبىّ تونس الحالية ، فهو مغربىٌّ مثل ابن بطوطة .

برّ التركية

دخل ابن بطوطة آسيا الصغرى بطريق البحر ، قال : « ومن اللاذقية ركبنا البحر فى قرقورة كبيرة لِلْجُنويِّين يسمَّى صاحبها بمَرتَلْمِين ، وقصدنا برَّ التركية المعروف ببلاد الروم .. وسرنا فى البحر عشراً بريح طيبة . وأكرمنا النصرانىُّ ولم يأخذ منا نولاً . وفى العاشر وصلنا إلى مدينة العلايا، وهى أول بلاد الروم » .

القُرقورة

وفى هذه العبارة ألفاظ تحتاج منا إلى شىء من التعليق ، أولها : القرقورة

وهو نوع من السفن ، وقد ضَبَطَ نُطقه ابن منظور فقال إنه على وزن «عصفورة » ويرد اللفظ أيضاً فى صورة قُرقُور .

وهناك خلاف على المراد به ، فيقول ابن منظور فى «لسان العرب» : «ويقال للسفينة القُرقُور أو الصُّرصُور » ، ويقول الجواليقى فى «المغرب» : «القرقور ضَرْبٌ من السفن أعجميٌّ تكلمت به العرب» ، ويفهم من النصوص أن ابن منظور على حق فى القول بأن اللفظ يطلق على السفينة ، والمراد به السفينة بصورة عامة ، لأن القراقير كانت من كل حجم ، ويقول ابن مُنكلى فى كتابه «الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر » إن القراقير منها الكبار جدًّا « وهى بثلاثة ظهور وممشى » والمراد بذلك مركب ذو ثلاثة أدوار، والظَّهر هو ما يعرف بالإنجليزية باسم deck وقرقور مسطَّح أى : ذات دور واحد، وقرقورة حربية .

والغالب أن ابن بطوطة ركب قرقورة كبيرة .. وكان صاحبها جنويًّا يذكر ابن بطوطة أن اسمه « بطلمى » ، والغالب أنه تحريف لاسم Barho-lomeou اليونانى . وقد أحسن هذا الرجل معاملة ابن بطوطة وصاحبه ولم يأخذ منهما نولاً أى: أجراً ، واللفظ مستعمل فى مصطلح البحر والجمارك فى البحر الأبيض إلى اليوم ، وهو الناولون .

ويستعمل ابن بطوطة لأول مرة لفظ « بَرّ التركية » والمراد بَرّ البلاد التركية، وهى آسيا الصغرى التى كانت تُعرف عند المسلمين باسم بلاد الروم أى : سلاجقة الروم ، أى: السلاجقة الذين اقتطعوا من أرض الروم فى آسيا الصغرى أجزاءً ونزلوها ، ولـمَّـا كان السلاجقة أتراكاً فقد عُرفت البلاد أيضاً بالتركية ، ومن هنا جاء اسم تركيا الذى أطلق على بلاد آسيا الصغرى أولاً ثم على بلاد الدولة العثمانية عامة ، ثم على الجمهورية التركية الحالية .

بلاد الأناضول

وفى أيام ابن بطوطة كان لفظ «برّ التركية» يطلق على بلاد الأناضول وهى الجزء الجنوبىُّ من آسيا الصغرى ، وقد تنازع عليها المسلمون والنصارى زماناً طويلاً حتى تمكَّن سلاجقة الروم من انتزاعها من أيدى الروم - أو البيزنطيين - نهائيًّا فيما بين سنتى ١٠٨١ و ١٠٩١ م .

إمارات الغزاة

وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر قامت فى آسيا الصغرى إمارات تركية إسلامية أنشأها من يُعرفون باسم «الغزاة» ، وهم الأتراك الذين جعلوا دأبهم مغازاة بلاد الروم واقتطاع أجزاء منها وإنشاء إمارات فيها .

وكانت هذه الإمارات تابعة لسلطان سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى وعاصمته «قونية» ، وكان سلطانه يمتد على شبه الجزيرة كله ما عدا أرمينيا الصغرى وطرابزون وما بقى للدولة البيزنطية من أملاك فى آسيا الصغرى على ساحل بحر مرمرة .

وكان الأتراك العثمانيون فى أول أمرهم جماعة من الأتراك التابعين لسلطان قونية ، ثم أَقْطَعَهُمْ أرضاً فى شرقىّ شبه الجزيرة فأنشأوا فيها إمارة غزاة، ثم تمكَّنوا شيئاً فشيئاً من التغلب على سلطنة الروم واقتطاع معظم أراضيها . وبعد أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية تجرَّد للقضاء على إمارات الغزاة وإدخالها فى أراضى الدولة العثمانية بصفته أكبر الغزاة .

وكان السلطان العثمانى - إذ ذاك - يُلقَّب بالغازى ، وقد ظل خلفاء بنى عثمان يحملون هذا اللقب حتى آخر أيامهم ، وحمله أيضاً مصطفى كمال منشئ تركيا الحديثة فكان اسمه أولاً « الغازى مصطفى كمال » .

علايا

وعلايا - وأصل اسمها : علائية - ميناء كبير كان على ساحل أضاليا ، وهى من إنشاء أعظم سلاطين سلاجقة الروم ، علاء الدين كيقباذ (١٢١٩ - ١٢٣٧م) وسُمِّيَتْ باسمه ، أما الملاَّحون الأوربيون فيسمُّونها كانديلور

Candelor وهو تحريف لاسمها الأول عند البيزنطيين Kalon Oros .

وكان الجانب الأكبر من تجارة علايا مع موانى سلطنة مصر والشام المملوكية وخَاصَّةً اللاذقية والإسكندرية ؛ لأن إقليم أضاليا كان مشهوراً بأخشابه ، وكان هو المورِّد الأكبر للأخشاب اللازمة للأسطول المملوكى .

ابن بطوطة يمتدح أهل أضاليا

ويمتدح ابن بطوطة أولئك الأتراك أصحاب إمارة أضالية (أو أنطالية) وغيرهم من أهل إمارات الغزاة ، ويقول عن إقليم بلاد الروم جملةً: «فأهله أجمل الناس صوراً ، وأنظفهم ملابس وأحسنهم مطاعم ، وأكثر خلق الله شفقة، ولذلك يقال : البركة فى الشام والشفقة فى الروم .. وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاويةً أو داراً يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء، وهنَّ لا يحتجبنَ، فإذا سافرنا عنهم ودَّعونا وكأنهم أقاربنا وأهلنا، وترى النساء باكياتٍ لفراقنا متأسِّفات » (ص ٢٧٢) .

وهذه العبارة من ابن بطوطة فيها مبالغة - فيما يبدو - ولكننا نستطيع قبولها وتفسيرها بأن أهل هذه البلاد - والأتراك عامة - كان لهم تقدير عظيم لرجال الدين والفقهاء خَاصَّةً . وقد دخلها ابن بطوطة فقيهاً ، وكان يحمل لقب القاضى ، ولهذا لقى هذا الإكرام كله من أولئك الأتراك ، وسيظل يتمتع به من الآن فصاعداً حتى يدخل بلاد القرم والبلغار ، بل حتى يدخل القسطنطينية نفسها . وسيزداد ذلك الاحترام لابن بطوطة الفقيه فى خوارزم ثم بلاد الهند ، وستتغير حاله - تبعاً لذلك - كما سنرى .

وهو يذكر أن جميع أهل هذه البلاد من السُّنَّة على مذهب أبى حنيفة ، وليس فيهم على غير السُّنَّة أحد ، وسنلاحظ أن هذا أيضاً سيكون حال الأتراك العثمانيين ، بل سيصبح أولئك الأخيرون أبطال السُّنَّة والجماعة ، ومن هنا صارت إليهم خلافة الإسلام .

يوسف بك ابن قرمان

وهنا نزل ابن بطوطة ضيفاً على قاضى المدينة جلال الدين الأرزنجانى، وقدَّمه هذا إلى ملك العلايا ويقول : « وهو يوسف بك - ومعنى «بك» :

الملك- ابن قرمان ، وسكنه على عشرة أميال من المدينة» . واسم هذا الأمير يفسر لنا السبب فى أن الإقليم الذى فى شرقىّ أضالية (أو أنطالية) سيعرف - فيما بعد - باسم إمارة قرمان ، وستصبح عاصمته مدينة لارندة التى ستسمَّى بمدينة قرمان جنوب قونية . وكانت إمارة قرمان تابعة لسلطان السلاجقة الروم فى قونية ، ثم استقلت عنها بعد ذلك .

أضاليا

ومن العلايا ينتقل ابن بطوطة إلى أضاليا (أو أنطالية) وكانت أضخم من العلايا وَأَهَمَّ ، وتجارتها أوسع وخَاصَّةً مع مصر وقبرص ، وما زال المصريون يسمُّون الليمون الكبير الحجم باسم ليمون أضاليا ؛ لأنهم كانوا يستوردونه من هذه الناحية . أما أهم ما كانت مصر المملوكية تستورده من ضاليا فكانت الأخشاب لبناء سفن الأسطول خَاصَّةً .

ويعطينا ابن بطوطة صورة طريفة ودقيقة جدًّا لتكوين هذه المدينة ؛ فقد كانت مؤلَّفة من أقسام أو أحياء أو مدن ، لكل طائفة من الناس قسم عليه سور ، فهناك قسم أو مدينة لتجَّار النصارى « ماكثون منها بالموضع المعروف بالميناء ، وعليهم سور تُسَدُّ أبوابه عليهم ليلاً وعند صلاة الجمعة » .

وهذه كانت عادة أهل مدن السواحل الإسلامية فى العصور الوسطى ؛ يتحرزون بالليل من النصارى النازلين بالميناء وفى أثناء صلاة الجمعة خوفاً من الطَّرَقات المفاجئة . وهناك أقسام أخرى للروم واليهود والمسلمين أهل المدينة وهو أكبر الأقسام وأهمها « والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضاً سور يحيط بها » .

ولعل الكثيرين لا يعلمون أن الأتراك العثمانيين لم يكونوا يسمُّون أنفسهم أتراكاً ، بل عثمانيين أو عثمانلى ، لأن لفظ «ترك» و«تركى» فى لغة الأتراك يحمل معنى الجلاخة والبدائية كما كان لفظ « فلاَّح » يحمل هذه المعانى فى لغة العرب . ولم نجد سلطان آل عثمان موصوفاً قَطُّ بأنه تركى .

أما أول من استخدم هذه اللفظة من رؤساء الأتراك فكان مصطفى كمال ، وكان فى هذا الاستعمال يريد أن يفخر بالجنس التركى الأصيل الذى قامت عليه الدولة . فسمَّى نفسه أتا ترك ، أى: « أبو الأتراك » ولم يُسَمِّ نفسه أتا عثمانلى ، وقد حدث ذلك فى الثورات العربية الحديثة ، عندما تحوَّل لفظ «فلاَّح» إلى مدعاة للفخر واعتراف بالأصالة ؛ فبينما كان الناس - قبل ثورة ٢٣ يوليو فى مصر - لا يحبون أن يُوصفوا بأنهم فلاَّحون أصبحوا يفخرون بأنهم فلاَّحون ، وأن ثورتهم ثورة فلاَّحين ، وارتبطت بوصف الفلاَّح كل فضيلة قومية أو إنسانية .

* * *